الفصل الثالث

الحكومة العالمية
فى رأى المدرسة الإسلامية

ليس فى تاريخ الدول الإسلامية دعوة صريحة إلى إقامة حكومة عالمية، ولا إلى ما يسميه القانون الدولى (تنظيمًا دوليًا)، وعلة ذلك أن الإسلام جعل من العرب أولاً، ثم منهم وممن تبع دينهم من الأمم الأخرى ثانيًا أمة موحدة، عليها أن تتماسك وتتناصر، وتتحد فى ظل الدين ﴿واعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا﴾ ﴿محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم﴾. وقد أشرف النبى على هذه الدولة منذ مولدها، ثم صارت من بعده إلى خلفاء يجمع كل منهم فى يده بين سلطة الدين وسلطة الدنيا، وكل ولاية عضو فى جسم الدولة فى ظل الخليفة وليس لولايه أن تعدو على الأخرى فإن فعلت كانت كل الولايات الأخرى (تنظيمًا) يقف فى وجهها، ويردها إلى صوابها، ويقضى على أسباب الخلاف والنزاع ﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين﴾. ﴿إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم﴾.

وفى ظل هذه الدولة الموحدة وتلك الحكومة المركزية لا تخطر بالأذهان فكرة الحكومة العالمية، ومما يؤيد ذلك أنه لما ضعف أمر الخلافة فى العهد

العباسى الثانى، وانقسمت الدولة الموحدة إلى دويلات كان أكبر ما يسعى إليه حاكم كل دولة أو إقليم أن يتقرب من الخليفة لنيل رضائه ليكون ذلك من عوامل تثبيته فى حكمه عن طريق الصبغة الشرعية التى يضفيها عليه اعتراف الخليفة به.

ولم يفكروا، كذلك، فى إقامة اتحاد دولى يجمع بين دولتهم الإسلامية والدول الأخرى غير الإسلامية إذ أن الإسلام لا يعترف بدين غيره ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾. ﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس﴾. وما دام الأمر كذلك فالإسلام لا يعترف بالدول غير الإسلامية بل يعدها ديار شرك تجب محاربتها، ولا يجوز عقد معاهدة معها ﴿كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله﴾. ﴿ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم﴾.

أما أهل الكتاب الذين يعاهدون المسلمين فعليهم أن يعطوا الجزية ويعيشوا آمنين داخل الدولة، لهذا كله كان طبيعيًا ألا يتجه تفكير المسلمين إلى تأسيس تنظيم على النسق الدولى الذى نفهمه الآن.

إلا أن هناك مفكرين من العرب ومن المسلمين قاموا بين حين وحين بدعوة ترمى إلى ضرورة الاتحاد والتنظيم بين الدول، وسنعرض لبحث آراء اثنين منهم، **أحدهما نادى بدعوته فى منتصف القرن الثامن، وأفكاره متأثرة إلى حد كبير بالفلسفة اليونانية القديمة وهو الفارابى، وثانيهما نادى بدعوته فى أواخر القرن التاسع عشر، ونزعته غربية فى جوهرها، إسلامية فى مظهرها. وهو الكواكبى.**

١ - مشروع الفارابى:

ولد أبو نصر الفارابى بمدينة فاراب إحدى مدن البلاد التركية، واستقر فى العراق ثم قدم إلى حلب، واتصل بسيف الدولة بن حمدان الذى عرف

فضله وعلمه فأكرمه، وقربه، وفى وقته كانت الثقافة اليونانية القديمة قد أثمرت ثمرتها فى العرب، وطبعت كثيرًا من علمائهم بطابعها حتى ظهرت آثارها فى كثير من الشعراء والكتاب والعلماء ومنهم الفارابى الذى تأثر بجمهورية أفلاطون تأثرًا كبيرًا. ومات الفارابى بدمشق سنة ٣٣٩ هـ الموافقة لسنة ٩٥٠ ميلادية.

ويعنينا من آثاره كتاب «آراء أهل المدينة الفاضلة» وهو دعوة إلى ضرورة إقامة اتحاد بين دول العالم. ويشير فيه إلى طبيعة ما بين مختلف الشعوب من تضامن إذ يقول: «إن الإنسان لا يمكن أن ينال الكمال الذى لأجله جعلت له الفطرة الطبيعية إلا باجتماعات جماعة كثيرة متعاونين يقوم كل واحد منهم للآخر ببعض ما يحتاج إليه فى قوامه».

ثم قسم المجتمع الإنسانى إلى مجتمعات كاملة وغير كاملة. وقسم الكاملة إلى ثلاثة أنواع وهى: العظمى، والوسطى، والصغرى.

وعرف العظمى بأنها: «اجتماعات الجماعة فى المعمورة» ثم قال: «الاجتماع الذى به يتعاون على نيل السعادة هو الاجتماع الفاضل. والأمة التى تتعاون مدنها كلها على ما تنال به السعادة هى الأمة الفاضلة. وكذلك المعمورة الفاضلة إنما تكون إذا كانت الأمم التى فيها يتعاونون على بلوغ السعادة».

عرف الفارابى المجتمع الفاضل، ولكن لم يوضح أسلوب تأليفه، ولم يضع قواعد تنظيمه على نحو ما عرفنا عن المفكرين الأوربيين الذين بسطنا بعض آرائهم. وكل ما عنى به فى تلك الحكومة التى سماها «المعمورة الفاضلة» هو أمر الرئيس. فاقترح أن يكون شخصًا واحدًا «لا يرأسه إنسان آخر أصلا، وهو الإمام، وهو الرئيس الأول للمدينة الفاضلة، وهو رئيس الأمة الفاضلة، ورئيس المعمورة فى الأرض كلها».

ولم يعرض للأساليب التى يتعين على هذا الرئيس أن يأخذ بها فى حكمه، ولا للنظم التى تسير عليها الأمم الفاضلة، وإنما اكتفى بسرد الصفات الواجب توافرها فى هذا الرئيس فقال: «ولا يمكن أن تصير هذه الحال (الرياسة) إلا لمن اجتمعت فيه بالطبع اثنتا عشرة خصلة قد فطر عليها» ومجمل هذه الصفات التى ذكرها هى أن يكون حكيما، قوى الجسم، قوى العزيمة، جيد الفهم، جيد الحفظ، وافر الذكاء، حسن العبارة، محبًا للعلم، يتحمل المتاعب فى سبيله، غير شره فى اللذات الجسدية، محبًا للصدق، كريم النفس، عادلاً ينصف الناس حتى من نفسه وأهله، ويكون شجاعًا مقدامًا.

ثم يعقب على هذا بأن اجتماع كل هذه الصفات فى شخص واحد يكون نادرًا، فإن اتيح توافرها فى إنسان كان هو الرئيس، وإلا فالرئيس هو من اجتمع فيه أكبر قدر ممكن من هذه الصفات.

وإذا لم يوجد الإنسان الذى تجتمع فيه أكثر هذه الصفات، ولكن وجد اثنان أحدهما حكيم، والآخر فيه الصفات الباقية يتوليان الرياسة معًا ليكون أحدهما مكملاً للآخر.

فإذا تفرقت هذه الصفات فى أكثر من اثنين «وكانوا متلائمين كانوا هم الرؤساء الأفاضل».

ويرى أن الحكمة هى أهم صفات الرئيس الأعلى. فإذا لم توجد هذه الصفة فى أحد بقيت المدينة الفاضلة بدون رئيس، وهذا يؤدى بها إلى الهلاك.

وبالجملة فإن آراء الفارابى تتلخص فيما يلى:

١ - يجب أن يقوم بين الشعوب اتحاد، لأنها جميعا فى حاجة إلى بعضها.

٢ - يكون هذا الاتحاد تحت رياسة شخص واحد.

٣ - إذا لم يوجد شخص واحد يصلح للملك تكون الرياسة لجماعة تتكامل فى مجموعتهم هذه الصفات.

٤ - ليست العبرة بالنظم والقوانين، ولكنها العبرة بالصفات والأخلاق التى يكون الرئيس مطبوعًا عليها.

لقد اهتم الفارابى بصفات الرئيس الأعلى للحكومة العالمية أكثر مما اهتم بالنظم والقوانين. أما المفكرون الأوربيون فقد حصروا كل جهدهم فى تنسيق النظم والقوانين دون أن يفكروا فى الصفات الواجب توافرها فى المشرفين على هذه الحكومات.

٢ - مشروع الكواكبى :

السيد عبد الرحمن الكواكبى ربيب بيت كريم فى حلب. ولد سنة ١٨٤٨ وكانت نقابة الأشراف تنحصر فى أسرته، فنشأ من صغره نشأة علمية خلقية، وتولى بعض وظائف الحكومة فى سوريا، ثم تخلى عنها، وقام ببعض الأعمال التجارية، وطاف كثيرًا من البلاد الإسلامية دارسًا وباحثًا. وتوفى بمصر سنة ١٩٠٢.

كافح ظلم الحكام، وقسوة الاستعمار بتأليف كتاب (طبائع الاستبداد). وكان من دعاة اتحاد الشعوب الإسلامية فألف كتاب (أم القرى) الذى يحمل أول دعوة لربط البلاد الإسلامية عن طريق اتحاد دولى. ونهج فى كتابه هذا أسلوبًا قصصيًا، فتحدث عن جمعية إسلامية عقدت فى مكة حضرها ممثل أو أكثر لكل قطر إسلامى. فكان فيها ممثل للشام، وممثل للإسكندرية وآخر لمصر، وممثل للقدس، ولليمن، والبصرة، ونجد، والمدينة المنورة، ومكة، وتونس، وفاس، وممثل لكل من

مسلمى إنجلترا، ومسلمى الروم، والأكراد وتبريز، والتتار، وفزان، وتركيا، وأفغانستان، والهند، والسند، والصين.

وأسندت الرياسة إلى ممثل مكة، والسكرتارية إلى السيد الفراتى (يعنى نفسه) ويبدو من هذا أن مشروعه موضعى إذ أنه مقصور على الدول الإسلامية وحدها. فهو بهذا مقابل لمشروع الكاتب الفرنسى بيير ديبوا الذى دعا إلى اتحاد الدول الأوربية المسيحية.

ويعزو الكواكبى عقد هذه الجمعية إلى البحث عن علاج للضعف الذى أصاب كافة الشعوب الإسلامية، ويذكر أن رأى الجماعة قد استقر على حصر البحث فى أربع نقط ابتدائية هى :

١ – بيان الحال الحاضرة، ووصف أعراضها بوجه عام.

٢ – بيان أن الجهل هو مصدر الخلل الذى نزل بهم.

٣ – إنذار الأمة بسوء العاقبة المحدقة بهذا انذارًا هائلاً تطير منه النفوس.

٤ – إلقاء التبعة على الأمراء، والعلماء، وكافة المسلمين، وتوجيه اللوم إليهم لتقاعدهم عن النهضة بسبب تفوقهم وعدم اتحادهم.

وتبارى الأعضاء فى تفسير أسباب فتور الأمة فمنهم من أرجع ذلك إلى الفقر ومنهم من أرجعه إلى سيادة العقيدة الجبرية، ومنهم من قال إنما هو تحول السياسة الإسلامية من ديمقراطية إلى استبدادية، ومنهم من نسب ذلك إلى إهمال الأخذ بالدين، ومنهم من ألقى المسئولية كلها على رجال الدين وسماهم «الجهلاء ذوى العمائم». ومنهم من جعل السبب فقدان القادة والزعماء الحازمين، وهكذا..

ثم انتقل البحث إلى وسائل علاج هذه الحال فرأت الجمعية أن خير

علاج هو إنشاء جمعية دائمة تعنى بإصلاح أحوال الدول الإسلامية.

وبدأ السيد الفراتى، وهو الكواكبى، ببيان أهمية التنظيمات الدائمة فقال:

«إن الجمعيات المنتظمة يتسنى لها الثبات على مشروعها عمرًا طويلاً يفى بما لا يفى به عمر الواحد الفرد، وتأتى بأعمالها كلها بعزائم صادقة لا يفسدها التردد. وهذا هو سر ما ورد فى الأثر من أن يد الله مع الجماعة، وهذا هو سر كون الجمعيات تقوم بالعظائم وتأتى بالعجائب».

ثم انتقل إلى دراسة تنظيمه المقترح فوضع مبادئه العامة، وقدم شروط العضوية وبحث فى الهيئات العاملة، وفى طريقة التصويت، وفى غير ذلك من القواعد التى تقوم عليها التنظيمات الدولية الحديثة.

وخلاصة الآراء أن الجمعية تؤلف من مائة عضو منهم عشرة عاملون، وعشرة مستشارون، والباقون أعضاء فخريون. ويكون فيها أعضاء مساعدون لا يدخلون فى حصر معين، بل يكون الباب مفتوحًا أمام كل من يريد الانتساب.

واشترط فى العضوية بوجه عام شروطًا دقيقة قوامها: العفة، والأمانة والإخلاص، وسعة العلم، والقدرة على التأثير، وألا تقل سنه عن الثلاثين ولا تتجاوز الستين بشرط أن يكون سليم الحواس، وأن يكون قادرًا على التفرغ الكامل لخدمة المنظمة، ورعاية شئونها.

واشترط فى الأعضاء العاملين والمستشارين نفس الشروط الواجب توافرها فى العضوية، ويضاف إليها شرط الإلمام باللغة العربية تكلمًا وكتابة، والقدرة على الإقامة فى مقر المنظمة ثمانية أشهر فى كل عام، وأن يحضر الأعضاء العاملون إلى مركز التنظيم للعمل أربع ساعات فى كل

يـوم. أما المستشـارون فيحضرون جلسـة تستغرق يـومًا واحـدًا فى كل أسبوع.

ويشترط فى كل عضو فخرى أن يكون عارفًا، قراءة وكتابة، بإحدى اللغات الآتية وهى : العربية، والتركية، والأوردية، والفارسية. وأن يقدم إلى التنظيم تقريرًا شهريًا عن حال منطقته، وعما يستلزمه إصلاح أمرها.

ويقترح أن يقوم تنظيمه على الهيئات العاملة الآتية :

١ - الجمعية العامة.

٢ - الهيئة العاملة.

٣ - الهيئة المستشارية.

ولم يذكر تفصيلات إلا عن الجمعية العامة فقال : «تجتمع مرة كل سنة فى أول ذى القعدة، ويدعى إليها الأعضاء، ولا يجـوز لعضو عـامل أن يتخلف».

ومن اختصـاصات هـذه الجمعيـة انتخـاب أعضـاء الهيئـة العـاملة، وانتخاب المستشارين، ولها حق فصل العضو الذى يقع منه ما يخل بشرف العضوية. وتشرف على السياسة العامة للجمعية، وعلى ميزانيتها.

وتكون مكة المكرمة مركزًا رسميًا للجمعية، وتنشأ لها شُعَب فى الآستانة ومصر وعـدن، والشام، وطهـران، وتفليس، وكلكوتـا، وسنغـافـورة، وتونس، وكابل، ودلهى، ومراكش وغيرها من المواقع المناسبة. وتكـون الشعبة صورة مصغرة من الجمعية المركزية، ولا يجوز خضوع التنظيم لأية حكومة، ولا يجوز أن تتقيد بمذهب دينى خاص (من المـذاهب الأربعة) ويكون شعارها : «لا نعبد إلا الله».

وتجعل الجمعية من أهم أغراضها تعميم التعليم فى البلاد الإسلامية،

والترغيب فى العلوم والفنون النافعة، وإنشاء المدارس العالية التى تساعد على التوسع فى مختلف العلوم والفنون والتخصص فيها، وأن تعمل على توحيد مناهج التعليم وأن تنشىء مجلة شهرية لتأييد أغراضها.

وبناء على ما ورد فى المادة الرابعة عشرة من القانون الأساسى للجمعية «لا تتدخل الجمعية فى الشئون السياسية مطلقًا فيما عدا إرشادات وإخطارات بخصوص مسائل التعليم وتعميمه».

والذى يدرس أسباب قيام الجمعية، ويتعرف أهدافها يستطيع أن يدرك فى يسر وسهولة أن هذه المادة إنما وضعت لتخفى عن أصحاب السلطة أمر الغرض الرئيسى من قيام هذه الجمعية، وهو تكوين اتحاد إسلامى مع أن ذلك واضح مما جاء فى المادة الرابعة والأربعين من القانون الأساسى إذ تقول: «تسعى الجمعية بعد مضى ثلاث سنوات من انعقادها فى إقناع ملوك المسلمين وأمرائهم لعقد مؤتمر رسمى فى مكة المكرمة يحضره وفود من قبلهم، ويرأسهم مندوب أصغر أولئك الأمراء، ويكون موضوع المذكرات البحث فى السياسة الدينية».

وهذه المادة تكشف عن حقيقة أغراض الاتحاد، وهو تحوله من تنظيم ثقافى إلى تنظيم سياسى. ويؤيد ذلك ما ورد فى آخر الكتاب من أنه بعد تفرق اجتماعات الجمعية التأسيسية قابل مندوب الهند أميرًا عظيمًا، وأخذ يستطلع رأيه فيما دار فى اجتماعهم، وأطلعه على سجل جمعية أم القرى، وعلى المشروع الخاص بإقامة جمعية دائمة، ودار بينهما حوار يفهم منه أن الأمير انتقد عدم وجود أعضاء من السياسيين الأكفاء، ولذلك لم يظهر اهتمام المنظمة بالشئون السياسية والإدارية. وهذا الحوار وإن كان من إنشاء الكواكبى وخياله إلا أنه يدل على حقيقة اتجاهه فى الدعوة إلى اقامة

تنظيم دولى يشرف على السياسة والإدارة والثقافة لمختلف البلاد الإسلامية.

* * *

إن هذا الكتاب - فى رأينا - **أول مؤلف سياسى يجمع بين التفكير الغربى والتفكير الشرقى**، فقد اقترح لإنهاض البلاد الإسلامية، ولتخليصها من الفتور الذى أصابها، إقامة اتحاد دولى على قواعد ومبادئ على نحو ما نادى به الغربيون. من ضرورة وجود هيئات عاملة، ومكاتب إدارية، وشروط للعضوية، وقواعد للتصويت، ونحو ذلك مما تأخذ به التنظيمات فى الغرب. وهو فى تغليب النعرة الدينية شرقى يشبه أيضًا بعض الغربيين الذين نادوا بإقامة تنظيمات من الدول المسيحية وحدها.

وفيه من التفكير الشرقى الخالص تغليب الجانب الخلقى والروحى، وهو فى هذا يتفق مع الفارابى فكل منهما يعنى بالصفات النفسية التى يجب توافرها فى ذوى السلطان.

ويتلاقى الكواكبى مع سلى وزير هنرى الرابع ملك فرنسا فى أن كلا منهما أشار باللامركزية ودعا إلى إنشاء شعب فى مختلف الأقاليم التى يتألف منها الاتحاد.

وأفكار الكواكبى لم تثمر فى وقته، ولم يتح لمشروعه أن يظهر إلى عالم الوجود فى حياته. إلا أن هذه الأفكار كانت بذرة طيبة أثمرت فيما بعد، ومن هذه الثمرات: الجامعة العربية والمؤتمر الإسلامى، والكتلة الأفريقية الآسيوية، فهذه كلها نتيجة وعى شرقى قام على أسس غربية. وهذا مظهر عبقرية الكواكبى فى كتابه (أم القرى).